غير أني أود أن أقول: إن من الظلم أن يقصر وضع النحو على شيوع اللحن، وذلك لأن شيوع اللحن آفة بل نقص سرى إلى العربية كما بيّنا ذلك، وكما جاء في أسبابه في مصادرنا القديمة. ولو كان هذا سبباً لوضع هذا العلم الذي سمّي «النحو» لما كان لنا هذا البناء الشامخ، ولكان لنا منه ضوابط يسيرة تعين على إزالة العيب وسدّ الخلل. لو اقتصر الأمر على هذا لكان لنا نحو يسير يلتزم به المعربون ويأخذون به كما يأخذون بسائر ما ينبغي أن يحتفظوا به مما يقال ومما لا يقال. أريد من هذا أن النحو في ضوء هذه الظروف التاريخية علم يسير يتزود به المعلمون في تعليمهم التلامذة تبصرة لهم وهم يمارسون العربية قراءة وكتابة، فهل كان شيء من هذا؟ أقول: لو كان شيء من هذا لوجدنا بين أيدينا أشياء قليلة مما يمكن أن تحمل على أنها ضوابط تفي بالغرض التعليمي الذي أشرنا إليه. غير أننا لم نقف على هذا، والذي وصل إلينا هو شيء آخر وهو ما كان من البناء الشامخ الذي نوّهنا به. أنقول: إن النحو الذي قصد منه أن يكون ضوابط تقوّم بها الألسنة قد نسي فلم يصل إلينا منه شيء؟ إذا كان هذا فكيف تحول إلى علم واسع له أصوله وفروعه ومنهجه؟.

وإني لأميل إلى أن «النحو» كان ينبغي أن يكون على النحو الواسع الذي نعرفه ولو لم يكن قد ظهر اللحن وشاع. إنه العلم الذي بدأت أصوله في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، وهي الحقبة التي بدأت فيها المعارف العربية الإسلامية تنشأ وتزدهر حتى إذا كان القرن الثالث والقرن الرابع كان لنا علم لغوي واسع ينقسم أقساماً عدة، شأنه شأن سائر المعارف الأخرى. وإنه لعسير علينا أن نجد في الموروث النحوي ما يشير إلى أنه علم تعليمي تربوي يرمي منه أصحابه تقويم اللسان والقلم.

وقد كان لغير العرب من الأمم طوال العصور نحو نظير ما كان للعرب، وهو عندهم كسائر العلوم تجدّ في عصور التطلّع إلى المعرفة، وليس ضرورة أن يكون مرتبطاً باللحن أو ما يشبه ذلك.